من كنوز القرآن

بقلم

المشرف العام على موقع ياله من دين

www.denana.com

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القران نوراً وهداية وشفاء لأهل الإيمان، والصلاة والسلام على من كانت حياته تطبيقاً لهذا القرآن. أما بعد:

فهذه مجموعة مقالات ووقفات حول بعض الإشراقات القرآنية، نتجول في ظلالها، ونقتبس من أنوارها.

جعلنا الله وإياكم ممن يتدبر القرآن ويتأمل كنوزه .

فاقصص القصص لعلهم يتفكرون

إنه توجيه رباني لرسولنا صلى الله عليه وسلم ليقوم بوسيلة مؤثرة في دعوة الناس ألا وهي " القصة " .

إن الله تعالى خبير بأسرار النفوس ومطلع على خبايا الصدور ((أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ))[الملك:١٤].

وعندما يرشدنا ربنا إلى استخدام القصة فإنه يعلم أثرها وقوتها على النفس .

وتأمل في القرآن تجد كثيراً من القصص عن الأنبياء؛ مثل قصة آدم وإبليس تكررت مراراً، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون وردت في أكثر من عشر سور.

وتأمل في سورة يوسف إذ أنها كلها في قصة واحدة، وهكذا تجد القصص القرآني يملأ المصحف لحكم كثيرة، وقد نص الله تعالى على بعض هذه الحكم فقال: ((وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ))[هود:١٢٠] .

وقال: ((فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))[الأعراف:١٧٦] .

وقال: ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ))[يوسف:١١١] .

وعندما نتأمل السنة النبوية نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم القصة كثيراً وكان يقول: (حدثوا عن بني إسرائيل) [صحيح الجامع: ٢٨٣٧] .

وجمع بعض العلماء القصص النبوي في كتب مفردة .

وعند النظر في كتب سير السلف والتاريخ نجد مئات القصص والأخبار التي فيها العبر والاعتبار، مما يؤكد عناية السلف بمنهج القصة ونقلها للأجيال .

ومع هذا كل إلا أن العلماء وضعوا ضوابط وأسس عند استخدام القصص؛ فمن ذلك:

١- العناية بقصص القرآن .

٢- التثبت من القصص المنسوبة للأنبياء؛ لأن هناك قصص مكذوبة ومخالفة لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٣- التثبت من القصص التي تروى عن رسولنا صلى الله عليه وسلم.

٤- التثبت من القصص المنسوبة للسلف من الصحابة ومن بعدهم؛ لأن الكذب وارد، والمغرضون والزنادقة وأهل البدع استخدموا الكذب في النقل لترويج مذاهبهم.

٥- العناية بالقصص الواقعية ذات العبر .

٦- نقل القصة للآخرين مع الحرص على مناسبة القصة لمستوى عقول المخاطبين بها لئلا تتكرها أسماعهم وقلوبهم .

وكما قال ابن مسعود: " ما أنت محدث قوم حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة " .

وقد رأيت غير واحد يسرد قصصاً غريبة وأقرب إلى الخيال، وما ذاك إلا ليؤثر في الناس كما زعم، والحقيقة أن هذا المنهج موجود عند فئام من الناس – هداهم الله – ولو سألته عن مصدر القصة لوقع في ورطة .

أفكار ومقترحات :

١- الحرص على نقل الفوائد من القصة بطريقة قريبة للأفهام والعقول .

٢- من الجميل ربط القصة بالدليل من القرآن أو من السنة .

٣- أقترح جمع بعض القصص الواقعية في كتاب وترتيبها على فهرس العناوين وإخراجها بشكل مناسب .

٤- لو تحرص بعض المواقع الإسلامية على جمع القصص واختيار الأجود منها ليستفيد زوار الموقع منها .

٥- لو كان هناك تخصص في مجال التأليف لكي يكون هناك كتاب يحكي قصص الأطفال بطريقة تربوية تناسب أفهامهم، وكتاب يناسب النساء في مواقف وقصص جرت لهم .

٦- مكاتب توعية الجاليات لو تعتني بكتابة قصص " المسلمون الجدد " لكان في ذلك خير كثير.

٧- القنوات الإسلامية لم لا تعتني بالقصص وتخصص لها برامج إبداعية واحترافية .

٨- الجرائد والصحف اليومية لم لا تضع ركناً وزاوية للقصص لعل في ذلك خير للقراء ؟

١١٧- همسة من قصة يوسف عليه السلام.

بين يديك فوائد ولطائف على قصة يوسف عليه السلام كنت كتبتها بطريقة مختصرة في موقع " تويتر " وأحببت جمعها في ملف واحد لتتم الاستفادة منها .

١- بداية السورة ((نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ))[يوسف:٣] فيه : استخدام أسلوب القصة في الدعوة والاختيار الجيد للقصص النافعة من قصص الأنبياء والصحابة ، وهنا نؤكد على استخدام القصص الواقعية في التأثير الدعوي والتربوي .

٢- لا مانع من سرد القصص الواقعية . قال تعالى ((فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))[الأعراف:١٧٦] . وهناك يعيب بعض الناس علينا لماذا نقص؟ وأقول : نحن نقص؛ لأن الله أمرنا باستخدام القصص .

٣- ((وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ))[يوسف:٣] أي: قبل الوحي . وفيه : أن المرء بلا هداية القرآن ونوره في غفلة، وعلى قدر قربه من القرآن يهتدي .

٤- ((قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا))[يوسف:٥] هنا : فراسة يعقوب ومعرفته بما يفسد الأبناء و أن الرؤيا لا تحدث بها كل أحد بل لا تحدث بها إلا من تحب .

٥- أن الحسد بين الإخوة والأقارب أقوى من غيرهم لقوة التنافس والتنازع بينهم .

٦- الحث على سد الذرائع الموصلة للخلافات والبغضاء .

٧- ((إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ))[يوسف:٥] اليقين الكامل بعداوة الشيطان ومكره ومحاولة إيقاعنا في الفتن والمصائب، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيراً .

٨ - ((وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ))[يوسف:٦] الاجتباء: هو الاصطفاء والاختيار ، وفي هذا شرف الدعوة وشرف للداعية إذ أنها مهمة الأنبياء ومحط اختيار الله تعالى .

٩- ((وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ))[يوسف:٦] فيه : أن العلم وسائر النعم إنما هي فضل من الله ورحمة منه ، وأن الإنسان لا شيء لولا رعاية الله .

١٠- ((إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا))[يوسف:٨] فيه : الغيرة بين الأبناء ، وأنه يجب على الوالدين العدل بين الأولاد وعدم إشعار البقية بفضل أحدهم .

١١- ((اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا))[يوسف:٩] فيه : أن جريمة القتل من أشنع الجرائم ، وأن الحسد قد يتسبب في إلحاق الأذى بالمحسود .

١٢- ((يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ))[يوسف:٩] فيه : أن صاحب الخطأ قد يبرر لخطئه ويسوف التوبة ، فهم أرادوا قتله لينفردوا بأبيهم .

١٣- أخذوا يوسف وعاهدوا والدهم على رعايته ، ثم رموه في البئر وجاءوا بثيابه وزعموا أن الذئب أكله. والسؤال : كيف يأكله وثيابه لم تتمزق ؟.

١٤- أن السيئات ينادي بعضها بعضاً ، فهم أرادوا قتله ، ثم عاهدوا وكذبوا ، ثم رموه ، ثم كذبوا في العذر. وعلى العكس ، الحسنات ينادي بعضها بعضاً.

١٥- ((قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ))[يوسف:١٨] فيه : أن النفس أمارة بالسوء غالباً وتدعو صاحبها لكل ذنب، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " ونعوذ بالله من شرور أنفسنا " .

١٦- ((فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ))[يوسف:١٨] فيه ؛ الصبر عند البلاء ، والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه ، والحرص على تفويض الأمور لله .

١٧- جاءت سيارة وهي القافلة ورمى أحدهم بالدلو فخرج عليهم يوسف فأخذوه وباعوه لسيد مصر والمسؤل الكبير فيها لعل يوسف أن ينفعهم أو يكون ولداً لهم .

١٨- ويمكث يوسف في قصر العزيز فترة – الله أعلم بها – ولما بلغ أشده آتاه الله النبوة ، ومنحه الحكمة والعلم .

١٩- وفي القصر الجميل الكبير تحدث ..

٢٠- الفتنة العظيمة؛ حيث عشقت زوجة عزيز مصر يوسف عليه السلام بسبب جماله وحسنه، وتعرضت له وأغلقت الأبواب وقالت: هيت لك. أنا بين يديك..

٢٢- ولكن يوسف كان صاحب إيمان وخوف من الله ، قال : معاذ الله ، أي أعتصم بالله. وهذا شأن كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الفتن ويبرأ من حوله وقوته.

٢٣- ثم اعترف يوسف بفضل سيده ((إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ))[يوسف:٢٣] فكيف أقع في الحرام المتعلق بعرضه، وهو الذي أكرمني وآواني في قصره، وهذا دليل على سمو أخلاق يوسف وهو : خلق الوفاء .

٢٤- ((وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ))[يوسف:٢٤] الهم من المرأة معلوم ، ولكن مامعنى الهم من يوسف؟ على خلاف في التفسير...

٢٥- والصواب : أنه لم يحدث منه هم أصلاً؛ لأنه رأى برهان ربه قبل أن يهم ، وهو اختيار الإمام الشنقيطي صاحب أضواء البيان رحمه الله .

٢٦- ((كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ))[يوسف:٢٤] وفيه : الحفظ الرباني لأنبيائه، وأن المرء لاحول له ولا قوة إلا بالله .

٢٧- وأن المخلصين يحفظهم الرحمن من الفتن بسبب قوة إخلاصهم وحرارة تقواهم . قال ابن تيمية : " فإن قوة إخلاص يوسف كان أقوى من جمال المرأة ".

٢٨- شدة الفتنة بيوسف عليه السلام ، فإن المرأة هي التي دعته ، وقد غلقت الأبواب ، وهي سيدته ، وهو شاب وأعزب وغريب عن البلد ومع ذلك حفظه الله .

٢٩- ((وَاسْتَبَقَا الْبَابَ))[يوسف:٢٥] فيه : الفرار من مواطن الفتن، فيوسف يسرع للباب حذراً من فتنة المرأة، وهي تلاحقه لكي توقعه في الفتنة. إنه مشهد عجيب .

٣٠ - الناس قسمان : ١- يفر من مواطن الفتنة ويبتعد عنها ، وهذا يحفظه الله ويرعاه . ٢- يفر إلى مواطن الفتن ويسابق لها ، وهذا يكله الله لنفسه .

٣١- الفتنة بالنساء عظيمة جداً فكيف إذا كانت ذات منصب وجمال كما هو في ظاهر القصة ، فالملوك يتزوجون أجمل النساء . وهنا يظهر لك ثبات يوسف .

٣٢- لما كانت المرأة تلاحق يوسف مزقت قميصه من الخلف من شدة التعلق به ومحاولة فتنته . وهذا يوحي لك بأن المرأة عازمة بقوة ، ومع ذلك يوسف يبتعد.

٣٣- حينما كان يوسف والمرأة يتقدمان نحو باب الغرفة صادفا السيد والزوج ، فبدأت المرأة باتهام يوسف مباشرة ((مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا))[يوسف:٢٥] .

٣٤- يوسف بدأ بالدفاع عن نفسه ((قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي))[يوسف:٢٦] وفي هذا : المبادرة المباشرة للدفاع عن النفس عند أي اتهام يوجه لك في أي موضوع كان .

٣٥- كان هناك شاهد حضر عند الباب وأرشدهما إلى الحل الحكيم ، إن كان القميص ممزق من الخلف فيوسف بريء؛ لأنها هي التي تلاحقه .

٣٦- إن كان قميص يوسف ممزق من الأمام فهو الذي راودها؛ لأنها ستدافع عن نفسها وتمزق ثيابه من الأمام ، وبعد التبين ظهر أن قميصه ممزق من الخلف .

٣٧- فلما ظهرت براءة يوسف قال زوجها : هذا من كيدك أيتها المرأة ((إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ))[يوسف:٢٨] وخطير على من يقع عليه . وفي هذا دليل على ضعف الغيرة لديه .

٣٨- ثم ألقى الأمير كلمته ليوسف بأن ينسى ماحدث ((يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا))[يوسف:٢٩] ولا تكشف الأسرار . ووجه زوجته بالاستغفار فقط مع عدم وضع حدود لها أو أي تأنيب لها .

٣٩- انتشرت قصة يوسف مع المرأة في المجتمع وبدأت النساء يتكلمن في القصة ((وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا))[يوسف:٣٠] .

٤٠- وفي هذا : أن القصص تنتشر والتاريخ يفوح ، فاحذر من انتشار القصص التي تتضمن عيوباً ومخالفات .

٤١- حكمت النساء على ضلال المرأة بسبب فعلها .

٤٢- علمت المرأة بكلام النساء عنها فتألمت لذلك، وأرادت كشف السبب لفعلتها وعشقها ليوسف ، فرتبت موعد لكي يشاهدوه ، وفعلاً حضرن وخرج يوسف .

٤٣- أجلستهم في مكان وفيه مأكولات وأعطت سكيناً لكل واحدة، ولما خرج يوسف وشاهدن جماله استغربن من هيئته وقطعن أيديهن بلا شعور .

٤٤- ((فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ))[يوسف:٣١] ولسان حال المرأة: هذا مع أنكم شاهدتموه مرة واحدة فكيف بالتي تعيش معه في قصر واحد ؟.

٤٥- اعترفت المرأة بجريمتها أمام صديقاتها ((وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ))[يوسف:٣٢] وفيه : البجاحة والرذيلة التي كانت عليه المرأة حيث تتحدث بمعصيتها .

٤٦- الغالب أن صديقات الأغنياء من نفس الطبقة والأهداف ، وصديقات المرأة يستمعون لسيدتهم وهي تتحدث برغبتها في المعصية و لم ينكروا عليها .

٤٧- التهديد ليوسف العفيف ((وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ))[يوسف:٣٢] مسكينة تلك المرأة تظن أنها بتهديدها سيقبل يوسف ما يجرح إيمانه وتقواه .

٤٨- حينما هددت المرأة يوسف عليه السلام بالسجن ظنت أنها سوف تخيفه وتجعله يوافق على اتباع هواها ، وهكذا يفعل الطغاة بالدعاة من التخويف بالسجن .

٤٩- كانت تظن المرأة أن سجنها ليوسف سوف يجعل يوسف ذليلاً صغيراً مهاناً، وما علمت أن السجن سيكون بوابة للعز والشرف والتمكين .

٥٠- وحينما شعر يوسف بخطر الفتنة من المرأة وصاحباتها توجه لربه عز وجل مضطراً منكسراً ((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ))[يوسف:٣٣] .

٥١- وفي قوله ((مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ))[يوسف:٣٣] مع أن امرأة العزيز هي التي حاولت معه، إلا أن حضور النساء ومشاركتهن لسيدتهم جعل يوسف يشعر بأن الخطر منهن .

٥٢- اختار يوسف السجن الذي ظاهره الألم والحرمان من متاع الحياة والالتفاف حول قضبان الحديد ، ولكن يهون كل شيء في سبيل المحافظة على العفاف .

٥٣- قال يوسف لربه ومولاه ((وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ))[يوسف:٣٣] دليل على أن الحماية الحقيقية من الفتن إنما هي من الله تعالى .

٥٤- وفي قوله ((وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ))[يوسف:٣٣] إشارة إلى الجهل الحقيقي هو في تقديم الهوى على الهدى ، وأن المعاصي نوع من الجهل ولو كان صاحبها يملك علماً.

٥٥- قال تعالى: ((فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[يوسف:٣٤] لما علم الله صدق يوسف وتقواه استجاب له وصرف عنه فتنة النساء .

٥٦- ثم تبين لتلك الأسرة الحاكمة أن يسجنوا يوسف حتى ينقطع خبر قصته مع المرأة لينسى الناس .

٥٧- ودخل يوسف السجن وكان معه فتيان ، وذكروا له بعض الرؤى ، وطلبا منه التعبير ، والسبب ((إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ))[يوسف:٣٦] وفي هذا إشارة للأخلاق التي كان عليها يوسف عليه السلام .

٥٨- وأن يوسف كانت أخلاقه في السجن رائعة وأنه صاحب إحسان ، ونستفيد أن السجن الذي تعرض له يوسف لم يغير أخلاقه للأسوأ كما هو حال بعض من يقع عليه البلاء .

٥٩- وأن الناس يتأثرون بمايشاهدون من أخلاق العالم والداعية وينجذبون له بأسئلتهم وهمومهم إذا تأثروا بأخلاقه .

٦٠- ثم فسر لهما الرؤيا وقال: ((ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي))[يوسف:٣٧] وفي هذا الاعتراف بفضل الله وتعليمه وهدايته وأن كل خير فيك فهو من الله تعالى .

٦١- ثم استغل يوسف فترة وجوده في السجن وبدأ يدعو رفاقه للتوحيد ((يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ))[يوسف:٣٩] .

٦٢- وفي هذا أن الداعية عالي الهمة يستفيد من كل فرصة لكي يدعو الناس للمنهج الحق وأنه لايستسلم للظروف والعوائق التي تقعده عن تبليغ الدين .

٦٣- في السجن تكرر ذكر التوحيد ونبذ الشرك على لسان يوسف عدة مرات، مما يدل على عناية الأنبياء بالدعوة للتوحيد وتأصيله في النفوس .

٦٤- لما فسر لهما الرؤيا قال: ((قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ))[يوسف:٤١] وهذا يدل على أن تعبير الرؤيا نوع من الفتوى ، فتجري فيه آداب الفتوى والمستفتي .

٦٥- لما خرج أحدهم طلب منه يوسف أن يذكر لسيده أن في السجن من هو مظلوم، فنسي الرجل ذلك، ومكث يوسف عدة سنوات في السجن ، قيل ٩ وقيل ١٢ سنة .

٦٦- وفي طلب يوسف هذا يتبين أن طلب المساعدة ممن يقدر عليها لا ينا في التوكل ، وأن المرء يحاول تخفيف البلاء عن نفسه بقدر ما يستطيع .

٦٧- حصل القدر الرباني وهو أن يمكث يوسف في السجن بضع سنين، وفي هذا تسلية لكل سجين مظلوم ، فالله قادر على إخراج يوسف ولكنه التمحيص والابتلاء.

٦٨- وتجري الشهور والسنوات ، ويوسف في السجن ، ولك أن تسبح بخيالك كيف عاش يوسف في السجن ، أي هموم كانت تدور في نفسه ، وكم هي ساعات الألم ؟؟

٦٩- لم يذكر الله أي تفصيل لحياة يوسف في السجن ولكننا نجزم بأنها كانت حافلة بالإيمان والتثبيت الرباني لنبيه يوسف؛ لأنه كان من عباده المخلصين .

٧٠ - ثم يسخر الله الأسباب لخروج يوسف من السجن من خلال رؤيا الملك ، وفي هذا إشارة إلى أن الله له الحكمة البالغة في كل أقداره .

٧١- في قول المعبرين للملك ((وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ))[يوسف:٤٤] اعتراف بعدم العلم ، وهذه شجاعة عجيبة؛ لأن الملك قلق من الرؤيا ، ومع ذلك لم يجاملوه .

٧٢ - وكم نحن بحاجة إلى أن نسمع من المفتي " لا أدري أو لا أعلم " بكل شجاعة بدون أن يلمع النصوص ويتبع الهوى في فتواه بسبب رهبة أو رغبة .

٧٣ - وحينها خرج الرجل الذي كان مسجوناً مع يوسف وأخبر الملك بمهارة يوسف في تعبير الرؤى ، فوافق الملك، وجاء الرجل وقص الرؤيا على يوسف فعبرها .

٧٤ - فلما فسرها يوسف أعجب الملك بتفسيره وأمر بإحضاره ، ولكن يوسف رفض الخروج حتى تبرأ ساحته من الاتهام المنسوب له وسجن بسببه .

٧٥ - فطلب يوسف من الملك أن يجمع النساء اللواتي قطعن أيديهن ، فجمعهم الملك وسألهم وكانت زوجته حاضرة ، فاعترف النسوة ببراءة يوسف .

٧٦ - وفي هذه اللحظة ظهر الحق ، واعترفت المرأة بأنها هي التي راودت يوسف ، وأن يوسف بريء ، وهذا الاعتراف منها ليعلم زوجها أنها لم تخنه .

٧٧- وأن يوسف لم يحصل منه شيء معها ، ثم اعترفت بأن هذه الجريمة بسبب النفس الأمارة بالسوء ، وأن النفوس تدعو للمعصية إلا مارحم ربي .

٧٨ - وختم الله تلك القصة بقوله ((إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ))[يوسف:٥٣] وفي هذا لطف إلهي جميل حيث ذكر مغفرته ورحمته لمن اعترف بذنبه ورجع للحق وأناب .

٧٩ - وفي ذلك بيان أن المظلوم سيأتي يوم وتبرأ ساحته ، وأن العسر لن يطول ، وأن الله مع الصابرين ، وأن الله سيخيب خطط المخالفين والأعداء .

٨٠ - تنبيه .الآية ((وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي))[يوسف:٥٣] قيل إنها من كلام يوسف ، وهذا ليس بصواب ، والصواب أنه من كلام المرأة والسياق يدل عليه ورجحه ابن تيمية.

٨١- قال يوسف للملك ((اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ))[يوسف:٥٥] فيه : جواز طلب الإمارة والرئاسة لمن يعلم في نفسه القدرة عليها .

٨٢- إذا ترك أهل الخير الرئاسة فقد يتولاها من لا يحسن رعايتها .

٨٣- قال: ((إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ))[يوسف:٥٥] فيه : جواز مدح الإنسان لنفسه لمصلحة يراها .

٨٤- يوسف لم يزكي نفسه ليتفاخر بشيء عنده، وإنما قال ((إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ))[يوسف:٥٥] ليبين للملك أنه أمين على المنصب وعليم بأصول القيادة والإدارة .

٨٥- ((وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ))[يوسف:٢١] أن تمكين يوسف إنما هو بتوفيق الله ، وأن الإمارة والولاية داخلة في النعم لمن أجاد إدارتها .

٨٦- ((وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ))[يوسف:٥٧] جاءت هذه الآية بعد تولي يوسف المنصب ليعلم الجميع أن الآخرة خير من الدنيا ومناصبها .

٨٧- قال يعقوب لأبنائه ((لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ))[يوسف:٦٧] فيه الاحتراز من العين والحسد وأن ذلك مطلوب وهو سبب مهم في الحفظ .

٨٨- ثم قال يعقوب بعد ذلك ((وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ))[يوسف:٦٧] فيه : التعلق بالله وتفويض الأمور إليه ، وأن الواجب علينا فعل الأسباب فقط .

٨٩- لما أخذ يوسف أخاه وأبقاه عنده كان يعقوب يحدوه الأمل وحسن الظن بربه عز وجل ((فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا))[يوسف:٨٣] .

٩٠- تعجب أولاده من بقاء يوسف في قلبه بعد مرور نحو ٣٠ سنة ، فأعلنها من قلب محترق ((إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ))[يوسف:٨٦] فما أجمل التعلق بالله وحده.

٩١- وقال يعقوب ((وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ))[يوسف:٨٦] نعم أنا أعلم أن ربي لطيف وسيلطف بي ، والله كريم وسيكرمني بعودتهما . وهنا يكون الرجاء الحقيقي .

٩٢- ثم أمرهم بالرجوع للملك والبحث عن يوسف وعدم اليأس من رحمة الله وفرجه ونصره . وكأني بهم يقولون : وأين يوسف ؟ وماعلموا بالذي أمامهم .

٩٣- ثم دخلوا على يوسف فعرفهم ولكنهم لايعرفونه وطلبوا طلباتهم في الطعام . فقال يوسف لهم ((هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ))[يوسف:٨٩] إنها الصدمة الكبرى !!!

٩٤- قالوا لعلك أنت يوسف ، فأخبرهم أنه يوسف، وأن الله أكرمه وأخاه بالبركات، ثم أخبرهم بقاعدة مهمة وهي " التقوى والصبر " وأنها طريق النجاة .

٩٥ - ((إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ))[يوسف:٩٠] ياها من آية جامعة لأسباب النجاة . نعم لقد كان يوسف تقياً لربه في عدة مواضع .

٩٦- لقد كان يوسف صابراً على قضية البئر ، وقصة مراودة المرأة في القصر ، وكان صابراً للسجن في سبيل الله ، فكانت النتيجة (التمكين والرفعة) .

٩٧ - وحينما علم إخوة يوسف بأن الذي أمامهم هو يوسف ، نطقوا بكلام جميل ((قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا))[يوسف:٩١] إنه الإيثار الرباني واختياره .

٩٨- وحينما ترجع لقصة يوسف وقصص البلاء التي وقعت له ، ثم تتأمل ((لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا))[يوسف:٩١] تعلم أن الإيثار الرباني لابد أن يكون معه بلاء .

٩٩- وتزداد يقيناً بأن الوصول إلى مراضي الرب ومنازل القرب منه لا تتم إلا بعد تجاوز الابتلاء بكل أدب ، بلا اعتراض ولا جدال ولا شكوى .

١٠٠- ثم قالوا ((وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ))[يوسف:٩١] ما أجمل الاعتراف بالخطأ، ومحاولة الرجوع للحق ، وكم في هذا الموقف من أثر على قلب يوسف عليه السلام .

١٠١ - وبعد ذلك أعلن يوسف عفوه عنهم بكل حب وأدب وصدق ((لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ))[يوسف:٩٢] إنها أخلاق الكبار .

١٠٢ - وإن المتأمل في خلق العفو من يوسف مع جريمة القتل التي حاولوا إيصالها له لما رموه في البئر، يجد أن يوسف كان رائعاً جداً في عفوه عنهم .

١٠٣ - هل لي أن أسألك سؤالاً: هل مارست خلق العفو مع أحد من أقاربك أو أصدقائك ؟ لابد أن نتربى عليه فهو من أخلاق الأنبياء عليهم السلام .

١٠٤ - ثم تكون معجزة القميص لما أمر يوسف إخوته بأن يأخذوا القميص ليرموه على وجه أبيه ليعود إليه بصره ((اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا))[يوسف:٩٣] .

١٠٥ - وتنطلق رائحة القميص إلى يعقوب ، وتتجاوز حدود المكان والزمان ويقول: ((إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ))[يوسف:٩٤] يا الله ، أي شوق مثل هذا؟!.

١٠٦ - ((فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ))[يوسف:٩٦] نعم جاء البشير ، وألقى قميص يوسف ، وعاد بصر يعقوب ، وانطلقت الأسرة إلى يوسف بكل شوق ، فما أجمل الشوق قبل اللقاء ، فكيف إذا حصل اللقاء ؟

١٠٧ - جاء الأبناء لأبيهم يعقوب عليه السلام معتذرين ((قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ))[يوسف:٩٧] فما ظنكم بأخلاق الأنبياء ؟ ((سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي))[يوسف:٩٨] .

١٠٨- وأريدك أن تتذكر معي العفو الذي مارسه يوسف عن إخوته ودعائه لهم ((يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ))[يوسف:٩٢] ثم تأمل عفو يعقوب واستغفاره لهم ، وسيظهر لك جمال العفو وأنه خلق عند الأب يعقوب والابن يوسف عليهما السلام .

١٠٩ - ثم وصلت الأسرة إلى مصر وخرج يوسف لاستقبالهم من عناء الطريق ، ثم كانت لحظة اللقاء عجيبة ((آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ))[يوسف:٩٩] وهنا نسبح في خيال واسع.

١١٠ - ولك أن تتخيل كيف كان اللقاء بين يعقوب ويوسف بعد هذا الغياب الطويل . هنا نقف ، لنتخيل تلك الدموع والعبارات العاطفية والعناق العجيب .

١١١- ثم قال يوسف لأسرته ((ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ))[يوسف:٩٩] وأبشروا بالراحة والسعادة والأمان ، ثم أدخلهم قصره ((وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ))[يوسف:١٠٠] .

١١٢- ((وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا))[يوسف:١٠٠] أي: سجد الوالدان والإخوة ليوسف من باب التحية والتقدير ليوسف ، وهذا كان جائزاً في شرعهم ، وأما في شرعنا فلا نسجد إلا لله.

١١٣- ((وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا))[يوسف:١٠٠] أي: أن الرؤيا في أول السورة ((إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ))[يوسف:٤] ها هي تتحقق .

١١٤- وفي مشهد إيماني عجيب من يوسف يعترف يوسف بفضل الله عليه بأن أخرجه من السجن ((وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ))[يوسف:١٠٠] .

١١٥ - ثم يبدع يوسف بلمسة تربوية ساحرة حيث أخبر أن الشيطان هو الذي نزغ بينه وبين إخوته ، و لم يذكر أي تفاصيل من هموم تلك المعاناة .

١١٦- وهنا نكتشف خلق التغافل وعدم تذكير صاحب الخطأ بخطئه ، بل نعفو عنه ونتجاوز عنه بدون أي تفاصيل وقصص .

١١٧- وفي ختام السورة يدعو يوسف ربه بأن يميته على الإسلام ((تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ))[يوسف:١٠١] وفي هذا : إشارة لنا بأن الثبات بيد الله وحده .

وفي نهاية سورة يوسف يقول ربنا ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ))[يوسف:١١١] أي: أن حكاية قصة يوسف فيها العبر والاعتبار ، ولكن أين من يعتبر ؟.

التمسك بالدليل سبب الغلبة والانتصار

في الحوار الذي كان بين موسى عليه السلام وبين الرب تبارك وتعالى في شأن مواجهة فرعون يكون التوجيه الرباني ((بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ))[القصص:٣٥] .

إنها رسالة ربانية لموسى وهارون عليهما السلام أنهما " بالآيات والحجج " سيغلبون فرعون.

والباء في قوله تعالى: ((بِآيَاتِنَا))[القصص:٣٥] باء السببية؛ أي: بسبب الآيات والحجج.

قال ابن الجوزي: وفي الآية أقوال:

١- أن المعنى تمتنعان منهم بآياتنا وحججنا فلا يصلون إليكما .

٢- متعلق بما بعده، فالمعنى: بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون؛ أي: تغلبون بآياتنا.

٣- أن في الكلام تقديماً وتأخيراً وتقديره: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكما . زاد المسير (٤٨/٥) .

إنها إشارة مهمة لكل الدعاة أن يوقنوا بأن الدليل هو السبيل للانتصار عند إقامة الحجة على المخالف، وحينما يستشعر طلاب العلم ودعاة الحق هذا المنهج القويم فإن الحق سيظهر على أيديهم ويكون على كلامهم الوحي وضياؤه.

والناظر لبعض رجال الدعوة يجد أنهم – وللأسف – في غياب عن " الدليل " وبعداً عن " الاستضاءة بنور الوحي " .

وهذا قد يكون بسبب ضعف التمسك بالكتاب والسنة، وقد يكون بسبب الانشغال بالقضايا الدعوية وحوادثها عن الاستزادة من " الوحي المبين " ومهما كان السبب فلا يصح أن نعتذر به.

وليعلم الدعاة في كل زمان ومكان أن الدعوة بلا برهان من الكتاب والسنة لا قوة لها ولا ثبات، وأن التناقضات والتراجعات سمة لكل من اكتفى برأيه المجرد وأفكار الآخرين عن نور الوحي المبين.

يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم

في حياتنا الدنيوية مشاهد تتكرر، فهناك مشهد دخولك إلى مترلك، ورؤيتك لأسرتك، ومشهد ذهابك إلى عملك وسيرك في طريقك المعتاد .

ولكن حينما يكون المشهد " رؤيتك لأعمالك " لا شك أنه سيكون مشهداً غريباً نوعاً ما .

لعلك تنتقل معي إلى أرضٍ جديدةٍ في معالمها، غريبةٍ في أجوائها، متميزةٍ بعظمتها وسعتها .

هناك وحينما يجتمع الخلائق أجمعون في مشهد حافل بالإثارة ، ويكون اللقاء كبيراً ، تحصل عدة مشاهد ، ولعل منها " مشهد رؤية الأعمال " .

تأمل معي ((يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ))[الزلزلة:٦].

أليس مشهداً غريباً ؟ إن الله لم يذكر هنا رؤيتك لقريبٍ أو حبيب ، ولا لزوجة ولا لزوج ، ولا لمالٍ أو متاعٍ جميل ، نعم لقد ذهبت متعلقات الدنيا بكل أطيافها ، إنك الآن في أرض المحشر وأرض الميعاد .

إن الموعد ليكون اللقاء مع الأعمال ((لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ))[الزلزلة:٦].

إنها لحظة رؤية المنجزات الكبيرة من الحسنات والصالحات، إنها لحظة مشاهدة السيئات والكبائر التي فعلتها ونسيتها ولكن الله لا ينسى.

إنها ساعة الندم حينما ترى ذنوبك التي ذهبت لذتها وبقيت مكتوبة لكي تشاهدها هناك .

أنسيت كتابة الملائكة لأعمالك ((وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ))[الانفطار:١٠-١١] .

وتستمر كتابتهم الدقيقة عليك حتى تكون ساعة موتك ، ثم تنتقل لقبرك، ثم ليوم حشرك ، ثم هناك تستلم التقرير الكبير لسجل أعمالك لتشاهدها هناك بل وتقرأها ((اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا))[الإسراء:١٤].

يا الله، ما أعجب اللقاء حينما يكون مع العمل، وما أجمله إن كان العمل صالحاً ، وما أحزنه إن كان العمل سيئاً .

إن الواحد منا ليحاول أن ينسى جريمته وخطيئته حتى لا يؤنبه ضميره، ولكن هناك مشهد الرؤية للأعمال وما أعظمه من مشهد .

((وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا))[الكهف:٤٩] .

إن التأمل في ذلك المشهد يجعلك تستيقظ وتعيد المراجعة لنفسك ، لتصحح مسارك، وتساهم في المزيد من الحسنات لكي تشاهدها هناك لتسعد السعادة الحقيقية وتصيح أمام العالمين ((هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ))[الحاقة:١٩- ٢٠] .

وذلك المشهد يجعلك تقف، وتستغفر من ذنوبك، وتبدأ في محوها من كتابك حتى لا تشاهدها هناك ((إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ))[هود:١١٤] .

الاستبدال الرباني

حينما كنت أقرأ في نهاية سورة محمد لفت انتباهي قوله تعالى: ((وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ))[محمد:٣٨] .

إنها إشارة ربانية لأولئك الذين تركوا بعض الأعمال الصالحة كالإنفاق في سبيل الله بأن الله غني عنهم وعن نفقاتهم، كما في الآية ((وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ))[محمد:٣٨].

وفي الآية تقرير وتهديد بالاستبدال الرباني لمن فرط في باب النفقة في سبيل الله تعالى، والقلب المؤمن يخشى من الدخول في أولئك القوم الذين عناهم الله بقوله: ((يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ))[محمد:٣٨] .

وهذا الاستبدال دليل على أن الله لا يريدهم و لم يفوزوا برضوانه ومحبته حيث قال: ((ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ))[محمد:٣٨] .

يا الله ، أي ظلال نستوحيه من هذه الآية ؟! وأي تهديد يمس القلوب الخاشعة من هذا التهديد الرباني " يستبدل " ؟!.

إن الموقف لو كان في إدارة صغيرة كمؤسسة أو شركة وسمعت أن المدير سيأتي بموظف آخر غيرك بسبب تفريط بدا منك فإنك ستشعر بالأسى والحزن، وقد تحاول إرسال الوجهاء لإقناعه بتغيير رأيه وإبقاءك مكانك في تلك الإدارة.

إن هذا الموقف لن يستغربه أحد لأن كل واحد منا يشعر بحاجته إلى وجوده في تلك الإدارة أو الشركة، ومن الصعب أن يأتي بديل في مكانه، لأن هذا دليل على أن لدينا خلل وتقصير في عملنا، إذن كيف إذا كان الذي أراد استبدالك هو الله تعالى ((يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ))[محمد:٣٨] ولن يكون هذا منه سبحانه إلا بسبب تفريط وتخاذل منا في منازل العاملين الصادقين .

وإذا كان الله تعالى قرر أن يستبدل من قصر في باب النفقة فقط فكيف بمن كانت حياته كلها تقصير وتفريط وإعراض عن مراضي الرب تبارك وتعالى ؟

إنها همسة لي ولك: الزم باب العمل لله وابذل جهدك ومالك ووقتك في سبيل الله حتى لا تكون ممن عناهم الله بقوله: ((يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ))[محمد:٣٨] .

لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

في صلاة فجر أحد الأيام كنت أستمع لإمامنا وهو يقرأ بنا في الركعة الأولى من سورة الطلاق حتى بلغ ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] .

حينها وجدت خيالي يسبح في ظلال هذه الآية..

يا ترى كم هي الأقدار التي تألمنا لها وقت نزولها وجرت لها دموعنا ورُفعت في طلبها أيدينا، ولكن يا ترى هل كان لدينا نور هذه الآية ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] ؟

حينما نحزن لفقد قريب أو مرض حبيب أو فوات نعمة أو نزول نقمة ، قد ننسى أو نجهل أنه قد يكون وراء تلك الأزمة " منحة ربانية وعطية إلهية ".

جولة في ظلال هذه الآية :

نعم ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] .

- تلك الأخت التي نزلت بها مصيبة الطلاق وأصابها الخوف من المستقبل وما فيه من آلام ، نقول لها ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] لعل بعد الفراق سعادة وهناء ، لعل بعد الزوج زوج أصلح منه وأحسن منه ، ولعل الأيام القادمة تحمل في طياتها أفراح وآمال .

- ذلك الزوج الذي عانى من زوجته ، وصبر عليها ، ولكنها لم تبال بحقوقه ، وطالما نست أو تناست حسناته ، حتى كان الطلاق هو الخيار له ، نهمس له ونقول ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] نعم فلعل الله يمنحك زوجة أخرى تحسن التعامل معك ، وتساعدك على تحقيق أهدافك وتجعلك تشعر بأنك رجل لك مكانتك واحترامك .

- تلك الأم التي فقدت بر أبنائها ، وتألمت لعقوقهم ، نقول لها ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] فلعل الله أن يهديهم ويشرح صدورهم ويأتي بهم لكي يكونوا بك بررة وخدام ، فافتحي يا أمنا باب الأمل وحسن الظن بالرب الرحيم الرؤوف الودود .

– هناك خلف القضبان يرقد علماء ودعاة وأحباب وأولياء، والقلب يحزن والعين تدمع لحالهم ، ولكن ومع ذلك نقول ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] فلعل الله أن يمنحهم في خلوتهم " حلاوة الأنس به ولذة الانقطاع إليه " ولعل ما وجدوا خير مما فقدوا ، وهذا ابن تيمية الذي نزل السجون يصرح بأنه وجد فيها من الأنس ما لو كان لديه ملء مكانه ذهباً لما وفى حق من تسببوا له بذلك .

– في المستشفيات مرضى طال بهم المقام ، وأحاطت بهم وبأقاربهم الأحزان ، فلكل واحد منهم نقول ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] فلعل الصبر رفع الدرجات في جنان الخلد ، ولعل الرضا أوجب لك محبة الرحمن ، ولعل الشفاء قد قرب وقته وحان موعده .

– في ذلك المنزل أسرة تعاني من مصيبة الديون وتكالب الأزمات المالية، فرسالتي لراعي تلك الأسرة ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] فعليك بالصبر والدعاء وملازمة التقوى ، فلعل الفرج قريب وما يدريك ماذا تحمل الأيام القادمة من أرزاق من الرزاق سبحانه وتعالى .

والجولات تطول لتفاصيل حياة الناس الذين يحتاجون إلى التذكير بهذه الآية العظيمة ((لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)) [الطلاق: ١] .

ونصوص القرآن تضمنت ((إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)) [الشرح: ٦] و ((سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)) [الطلاق: ٧] .

فالله الله في تربية النفس على الرضا بالأقدار ، والنظر للحياة من زاوية الأمل ، والاعتقاد بأن الأيام القادمة تحمل معها ألواناً من السعادة والفرح والبهجة والأرزاق .

ومضة : لا يقلق من كان له أب فكيف بمن كان له رب .

لا هية قلوبهم

جاء هذا الوصف الرباني لقومٍ نسوا الآخرة وكانوا في غفلة عنها وأعرضوا عن منهج الله واتباع هواه.

يقول تعالى: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))[الأنبياء:١] ((مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ))[الأنبياء:٢] ((لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[الأنبياء:٣].

ولقد تأملت السر في وصف القلوب بأنها لاهية فعرفت أن المدار على القلب، وأن الإيمان ينبع من القلب، وأن الكفر والإعراض يصدر من القلب ثم الجوارح تأتي تباعاً.

فرسالتي لمن يريد النجاة أن يعتني بقلبه وأن يسعى لإصلاحه؛ لأنه طريق النجاة.

المنافقون والرغبة في النور

ما أعجب المشهد حينما يتقدم أهل الإيمان على الصراط المنصوب على متن جهنم ويسيرون عليه بسلام ((يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [الحديد : ١٢] .

إنها لحظات الثبات على الصراط ، والفرح بالإيمان والمنهج الحق الذي كانوا عليه ((يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)) [الحديد : ١٢] نعم ، هناك في أرض المحشر تأتي فوائد الإيمان والصالحات ، وكأن تلك الأعمال التي كانت لهم نوراً في قلوبهم في الدنيا إذا بذلك النور يتحول هناك إلى شعاع خارجي لينفعهم ويضيء لهم.

وتدبر " يسعى نورهم " لأنهم كانوا في الدنيا يسابقون للصالحات ويؤدونها بتنافس وسعي ومبادرة ، فالنتيجة أن نورهم الذي هو إيمانهم يسعى أيضاً بين أيديهم .

يا الله، كما كانوا يسعون ، فها هو نورهم يسعى ليضيء لهم الصراط المليء بالظلمة .

نعم.. فالصراط ظلام إلا على أهل الإيمان الذين أخذوا نور الإيمان في حياتهم الدنيا فوجدوه هناك في أرض المحشر، وما أجمل المشهد حينما ترى الأنوار مع تلك الفئة المؤمنة الصادقة .

وبعدما ذكر الله نور أهل الإيمان على الصراط والبشرى التي يسمعونها هناك بالجنات وهم يمشون.

ينتقل المشهد إلى أهل النفاق والإعراض عن الله تعالى ((يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ))[الحديد:١٣] يا الله! عجباً لكم يا أهل النفاق ، الآن تريدون من أهل الإيمان أن ينتظروكم على الصراط لعلكم تسيروا على ما يصيبكم من أثر نورهم حتى لا تسقطوا من على الصراط، آلآن؟!.

يا أهل النفاق ألم تحاربونا في الدنيا ونحن على الصراط المستقيم والمنهج الحق؟ ألم تتعرضوا لمنهجنا بالطعن واللمز؟ ألم تتعرضوا لنورنا في الدنيا بأنواع من الصد والإبعاد والتضييق ؟ .

وها أنتم اليوم يا أهل النفاق عرفتم معنى " الإيمان والنور " فها أنتم تطلبون منا بعض نورنا، ولكن هيهات، أنتم لا تستحقونه؛ لأن النور ثمين وأنتم لم تقدروا قيمته .

ويستمر المشهد في التبكيت والإهانة ((قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا))[الحديد:١٣] نعم.. عودوا إلى دنياكم وابحثوا عن النور، عودوا إلى مناهجكم الباطلة واطلبوا منها النور، اذهبوا إلى مجالسكم التي كانت مسخرة لحرب النور فهل ستمنحكم النور ؟.

ثم ينتهي المشهد ((فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ))[الحديد:١٣] ولعل هذا السور يمنع الرؤية ولا يمنع وصول الصوت بينهما .

ثم تأمل ما يجري هناك من نداءٍ يصيح به أهل النفاق ((يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ))[الحديد:١٤] وكأن المعنى : يا أهل الإيمان ألم نسكن معكم في بلاد واحدة ألم نكن في عمل واحد ألم نشارككم الحياة ؟.

فيجيب أهل الإيمان " بلى " أي : نعم كنتم معنا في ظاهر الأمر، كنتم معنا في المشاركة في الحياة الدنيا، ثم يأتي القول الفصل ((وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ))[الحديد:١٤].

لقد كنتم يا أهل النفاق معنا ولكنكم فتنتم أنفسكم باتباع الهوى والإعراض عن المنهج الحق والغفلة عن العمل بالكتاب والسنة .

لقد كنتم معنا ولكنكم تربصتم بنا ومارستم معنا ألوان الاعتداء والسخرية.

لقد كنتم معنا ولكنكم كنتم في ريب وشك وتردد عن الاستقامة على الدين والإيمان بما جاء في الكتاب والسنة والعمل بهما والرضى بهما منهجاً وحياةً.

لقد كنتم معنا ولكن غرتكم الدنيا بزخرفها ومناصبها وشهواتها وفتنها حتى جاء الموت، وفاتكم وقت الرجوع وذهبت عنكم لحظات التوبة ((فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ))[الحديد:١٥].

فها هو اليوم يوم القيامة لن يؤخذ منكم مال لتفتدوا به من العذاب وليس لكم نجاة من عذاب الله، بل جزاؤكم النار مع أهل الكفر الذين كنتم معهم في ولاء لهم ومحبة وتناصر .

وبعد هذه الجولة في هذا المشهد الإيماني الغيبي :

– أما آن لنا أن نجاهد أنفسنا معاشر المؤمنين على الاقتباس من نور الإيمان وصالح الأعمال في هذه الحياة لكي تنير لنا عند المرور على الصراط ؟

– أما آن لأهل النفاق ومن نحا نحوهم ورضي بمنهجهم أن يعودوا إلى ربهم ويلتمسوا النور المبين في الاتباع للمنهج الذي يرضي الله حتى لا يندموا هناك في أرض المحشر ؟

اللهم اهدنا إلى نور الإيمان، اللهم اجعل لنا نوراً نمشي به في الحياة الدنيا، اللهم اجعل في قلوبنا نورا، وفي قبورنا نورا، واجعلنا ممن يسعى نورهم بين أيديهم هناك على الصراط.. آمين يا رب العالمين .

فلن أكون ظهيراً للمجرمين

هذا جزء من دعاء موسى عليه السلام واعترافه بفضل الله تعالى حيث قال: ((قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ))[القصص:١٧] .

إن موسى عليه السلام يعترف بأن ما لديه من العلم و الحكمة إنما هو من ربه تبارك وتعالى، ثم يقرر بعد ذلك أنه لن يكون متعاوناً مع المجرمين ولا المفسدين.

إن هناك إشراقة تختفي وراء هذه الآية وهي: أن من تمام شكر النعم الربانية أن نحفظ أنفسنا من الوقوف في صف المجرمين والمفسدين.

ولكنك عندما تتأمل في صف بعض من أحاطت به النعم الإلهية إذا بك تراه ظهيراً للمجرمين، ويداً ناصرة لهم، وهذا مخالف لنهج المرسلين الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم ((أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ))[الزمر:١٨].

إن الانحياز لصف المصلحين هو المفهوم الآخر لهذه الآية؛ لأن موسى عليه السلام إن لم يكن ظهيراً للمجرمين فلا بد أن يكون ظهيراً للمصلحين.

إن العالم اليوم يمر بأزمة التباعد عن الإصلاح والمصلحين وبرامج ومؤسسات الإصلاح والتوجيه، وفي الوقت نفسه تجد أن أهل الإجرام والإفساد في التحام وتعاون رغم اختلاف التصورات أحياناً.

وإن على الدعاة وحملة الإصلاح أن يقتدوا بموسى عليه السلام وأن يراجعوا مسيرتهم ويتأكدوا من خطاهم ويتأملوا في " الولاء للمؤمنين والمصلحين " والبراء من الكافرين والمفسدين .

خذوا زينتكم عند كل مسجد

إنه أدب إلهي لعباده المؤمنين الذين يتجهون إلى مناجاته في المسجد أو في المصلى أو في أي مكان أن يعتنوا بالزينة الظاهرة عند أداء الصلاة؛ لأن الصلاة مناجاة بين العبد وربه، فكيف يليق بالمؤمن أن يكون في هذا الموقف وهو في حال غير حسنة ؟.

والمتأمل لحال بعض الناس يجد إهمالاً لتلك الزينة وتأمل:

- تجد أن بعضهم يأتي للصلاة بلبس النوم مع أن هذا يستحيل أن يذهب بلبس النوم إلى مناسبة أو إلى عمله.

- وآخر يأتي بلبس الرياضة، وهذا خلل أيضاً.

- وبعض العمال يدخل المسجد وآثار العمل ظاهرة على ملابسه سواء مواد بناء كالأسمنت والطلاء أو غيرها من المطاعم ونحوها.

- ومنهم من يأتي للمسجد أو للمصلى في النوادي الرياضية بلباس قصير قد ظهرت عورته " الفخذ " وهذا لا يجوز.

- وبعضهم يخرج بملابس السباحة القصيرة لكي يصلي فيها، وهذا لا يجوز أيضاً.

- لبس الشراب القديم الذي له رائحة كريهة، ولبس " البسطار " للعسكريين الذي قد يكون له رائحة أيضاً.

- وهناك أمثلة أخرى غير هذه تدل على إهمال التزين عند الذهاب للصلاة، ولكل هؤلاء نقول: لو دعي الواحد منا إلى لقاء مع مسئول كبير فهل سيغير لباسه ويعتني بمظهره أم لا؟.

إذاً.. أليس الله أحق أن نتزين له.

تشابهت قلوبهم

إنهم أعداء الملة، اليهود والنصارى والمنافقين، إخوةٌ في العداء لكل مسلم صادق.

وفي التنزيل: ((تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ))[البقرة:١١٨] والوقائع التي تمر بالأمة تبين لنا دلائل هذه الحقيقة في المجتمع الكافر، ولعل ما جرى لإخواننا في العراق وأفغانستان وفلسطين يبرهن كيف أن قلوب الكافرين باختلاف أديانهم مجتمعون في الحقد والبغض لهذا الدين.

وينتج من وراء تشابه القلوب، تشابه ردود الفعل والمواقف تجاه المسلمين.

وعندما يوقن المؤمن بحقيقة "التشابه هذه" يدرك أن الخطر القادم على الإسلام، إنما هو نتيجة هذا التشابه.

وأن المسلمين لن يروا خيراً من أمم الكفر أبداً إلا في نقاط هي تصب في مصالحهم وفي ظروف خاصة.

إن العداء مضى ووقع وسيزال وهذه سنةً جارية ولكن المهم هو إدراك "التشابه القلبي" لهم ليكون لدينا "خطة حقيقية في الدفاع عن ما ينتج من وراء هذا التشابه" ولهذا كانت نهاية الآية ((تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ))[البقرة:١١٨].

* ومضة: من الغريب أنه بعد هذه الآية بآية ((وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ))[البقرة:١٢٠] إنهم يريدون منا "مشابهتهم في المعتقد".

وفي داخل الكهف رحمة

عندما تسبح في معاني القرآن، وتستظل في ظلاله سوف تتذوق جمال هذا الكتاب العظيم، وتعال معي في هذه الآية التي نقرأها كل جمعة من سورة الكهف: ((فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا)) [الكهف:١٦].

فتأمل: عندما اعتزل الفتية قومهم المشركين وتركوا الاختلاط بهم بعد أن دعوهم إلى عبادة الله وحده، حينها توجه الفتية إلى الكهف، وأنت تعرف ما معنى الكهف –مغارة في جبل– فيدخل أولئك الفتية في الكهف فرارًا بدينهم واعتزالاً للكفر وأهله، وإيثارًا للدين الصحيح والتوحيد الخالص؛ وفي ذلك الكهف الذي ليس فيه أي مقوم من مقومات الحياة أو ركيزة من ركائز السعادة.

بل.. هو " مخيف " ومأوى للهوام –غالبًا– ولكن عناية الله ولطفه لها بُعد آخر، قال الله تعالى: ((يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)) [الكهف:١٦]، فتدبر:

– " ينشر " والنشر يوحي لك بشيء كثير وواسع من " الانتشار ".

– " ربكم " الذي آثرتموه وآمنتم به وهجرتم الكفر وأهله من أجله، فهو (ربكم) ومولاكم الذي سيعتني بكم، ويترل عليكم لطائفه ومواهبه حتى لو كان مترلكم كهف.

– " من رحمته " نعم؛ لأنه الرحمن، وهو الرحيم بأصحاب الإيمان والمنهج الحق، كما قال تعالى: ((وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)) [الأحزاب:٤٣].

فيا سبحان الله! لعل الفتية لما دخلوا الكهف لم يكن في حسبانهم تلك الهدايا الربانية التي ستنتشر لهم في ذلك الكهف.

وهكذا نقول لمن قام بواجب الدعوة إلى الله وإعلاء المنهج الحق، ووالى في الله وعادى في الله؛ فحين يُصاب هذا بفتنة السجن نقول له: " لا تحزن " فسينشر لك ربك من رحمته، وستجد لطائف المعاني القلبية، وستتذوق طعمًا للإيمان والاتصال بالرحمن لم يكن لديك قبل دخولك السجن.

إن " الكهف " و " السجن " مترلا كل صادق وداعية لا يميل حيث يريد " المداهنون " ، والسجن نزل فيه يوسف عليه السلام، ((فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)) [يوسف:٤٢]، ولعلها كانت مرحلةً لإعداد النفس لقيادة الأمة من جديد، وفعلاً خرج يوسف؛ وأصبح على الخزائن والأموال وله سلطة كبيرة.

إذن.. يا من سار في قافلة الدعوة، واصطحب الحكمة في مواقفه وأفعاله وأقواله، حينما تتعرض لبلاء العزل في " سجن " ؛ لا تحزن فلعلها خيراً لك وللأمة.. ((وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)) [البقرة:٢١٦].

ولا تتبع أهواءهم

هذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وفي المدينة ينطلق ليبلغ رسالة الإسلام، ويضحي بنفسه وحياته لتحقيق هذا الهدف العالي، وإذا بالوحي يأتيه بمسألة مهمة وقضية أصولية في طريق الدعوة ألا وهي: ((وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)) [المائدة:٤٨].

نعم.. إن الداعية الذي يستمع لكلام الأعداء ويلين لطلباتهم ويداهن في مبدئه ورسالته؛ لسوف يسقط في شباكهم، وينسب إلى " الناكصين " عن المبدأ الحق.

إن أهواء الكفار وأمنياتهم ورغباتهم تنصب في كل معاني التخاذل والتراجع عن نصرة هذا الدين، والتخلي عن التضحية في سبيله.

إن الحق له رجال يسعون لأجل نشره ودعوة الناس إليه، وكذلك الباطل له أهله الذين يستميتون لأجل الدفاع عن الباطل ورد الحق والطعن فيه، والداعية الرباني الذي يواصل السير في الطريق بكل صدق وإيمان وثبات، ولا يتنازل عن " دعوته " ولا يتبع أهواء الذين لا يؤمنون، ولا ينصت إلى أقوال الذين لا يعلمون.

ولكننا قد نجد بعضًا من حملة الدعوة ورجالها من قد يناله شيء من الضعف والفتور، وشيئًا من الكسل وعن تبليغ هذا الدين.

يا أيها الداعية الصادق: لا تتبع أهواء أصحاب الدنيا الذين قد يكون خطرهم أقرب إليك من خطر اليهود.

ولا تلتفت إلى صيحات المتخلفين عن الركب ودعهم وراءك، وواصل السير في قافلة الدعاة، وتذكر أن القائد هو " محمد صلى الله عليه وسلم " الذي لم يكن متبعًا لأهواء الذين لا يعلمون.

واسجد واقترب

ما ألطف حال السجود وما أجمل أسراره وما أحسن نتائجه وما أروع ثماره ، هو لحظة اقتراب الروح من مولاها وسيدها، وهو محط الذل الذي يُنتج لصاحبه العز.

كلما سجدت له تحقق لك من القرب ما لا يحصل لغيرك إلا إذا جاء بأكثر منك.

في السجود أسرار يعرفها صاحب القرب وفيه طعم لذيذ لا يذوقه إلا من حقق أعلى مراتب الذل، وفيه دموع جاءت بها عيون المحبين لما خلو بربهم وذاقوا القرب منه.

فيا من أحزنته الدنيا بغمومها ويا من أزعجته الحوادث بمصائبها لا أقول لك إلا كما قال الله لنبيه ((وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ))[العلق:١٩] .

همسة: إذا جاد القريب بالمنح فلا تخبر أحد فالحساد كثير.

إنه لا يحب المعتدين

إنه أدب رباني لتصحيح السلوك والحذر من بعض الأخلاق الذميمة التي لها أبعاد لمن " كان له قلب " .

الاعتداء له صور وفي ظلاله إشارات يجب الانتباه لها؛ فمنها:

– الاعتداء على حياض الشريعة بالسخرية منها، ولمز المتمسكين بها، وإلصاق التهم بهم وإشاعة الأكاذيب والافتراءات عليها وعليهم.

– الاعتداء في تجاوز حدود الله بارتكاب ما حرم الله، والنداء الرباني يحذر ويقول: ((وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ))[النساء:١٤].

– الاعتداء على نصوص الغيب والطعن فيها بأنها لا توافق العقل، وتأويلها تأويلاً لا دليل عليه.

– الاعتداء على حقوق المرأة والسعي لتحريرها من حجابها وحيائها في قالب الدفاع عنها والرحمة بها، والحقيقة أن ذلك هو الرغبة في إسقاط المجتمع في الافتتان بالمرأة وتقليد الغرب في إخراج المرأة من بيتها لتكون ألعوبة بأيدي العابثين.

– الاعتداء في الدعاء بأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم أو يبالغ في أوصاف معينة في الدعاء ، وفي الحديث: (إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء) [صحيح أبي دواد: ٩٦].

– الاعتداء في الطهارة بالوساوس فيها والشكوك التي تجعل صاحب الوسواس يكره العبادة بل قد يتركها.

– الاعتداء على المؤسسات الخيرية ومكاتب الإغاثة واتهامهم بتمويل الإرهاب بلا برهان واضح (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)[النور:١٥].

* اعتداء الزوج على زوجته:

– بالضرب أو الإهانات عبر لسان نشأ على سيء القول.

– الاعتداء على مالها سواء كان من وظيفة أو إرث، مع أن الشريعة منعت من ذلك كله إلا برضا صاحب المال، ومن عجائب ما وقفت عليه أن امرأة تقول في رسالتها لي : زوجي يطالبني بأن أعطيه بطاقة الصراف ليأخذ من مالي ما شاء ، وقال : إذا لم تعطيني البطاقة فلن تبقي معي. فعجباً لرجل هذا قلبه وهذا عقله.

– الاعتداء على إحدى الزوجتين للمعدد بسبب الميل لإحداهما، والغالب أن الأولى هي ضحية " الاعتداء " فيعتدى على وقتها وجمالها وإحسانها بسبب زوجة جديدة لم يراع الزوج في التعامل " التقوى " .

– الاعتداء بمنع الأب ابنته من الزواج ممن تراه مناسباً لها في " إطارات معتبرة " والسبب عادات راسخة مستوحاة من " جاهلية مقيتة " وهذا الاعتداء على حقها وحظها واختيارها يجلب من أنواع البلاء ما لا يعلمه إلا الله من كراهية الأب والدعاء عليه، بل والسعي للانتقام منه أحياناً ، بل قد يجعل بعض الفتيات تنتقم من هذا المنع بأن تبحث عن عاشق عبر الجوال لعله يخفف عنها مصابها ، والقصص عندي كثيرة في هذا الشأن.

– الاعتداء على المطلقة بمنعها من الرجوع لزوجها عند التراضي إلا بأموال تعجيزية مع عدم رغبة الزوجة في ذلك المال، ولكنه الاعتداء على حياتها وأسْرها في ظل الطغيان المادي لدى الأب.

– الاعتداء على حقوق الآخرين وخاصة المالية بطرق ملتوية، ويتفنن في ذلك بعض الأذكياء لا الأزكياء، وليعلم هؤلاء بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه فقد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار قيل: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً؟! قال: وإن كان سواكاً) [صحيح الترغيب والترهيب: ١٨٣٤].

– الاعتداء على أعراض الناس وخاصة العلماء وأولي الأمر بالغيبة والكلام البذيء.

– الاعتداء على حقوق المؤلفين والكتاب وسرقة إنتاجهم وإبداعهم.

– الاعتداء على بحوث ومقالات كتاب الإنترنت ونسخها في مواقع أخرى وعدم إضافتها لمن كتبها أولاً.

– الاعتداء على رجال الحسبة وإهانتهم والطعن فيهم بسبب الهوى، أو بعض الأخطاء البشرية التي تقع من أي موظف في أي جهة، وكان الواجب حفظ اللسان وعدم التعدي عليهم سواء في المجالس أو في الصحف أو مواقع الإنترنت ، ولكنه الهوى والكراهية للقائمين بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- الاعتداء على أموال الدولة من قبل بعض المسئولين ويظهر ذلك جلياً في تأخير بعض المشاريع التي تريدها الدولة ويتم التعاقد فيها مع بعض الشركات والمؤسسات فتحصل الخيانة بسرقة أموال الدولة وتأجيل تنفيذ المشاريع، وهذا ما يسمى بالفساد الإداري، والحديث عنه ملأ الصحف والمجالس.

- الاعتداء على المستأمنين والمعاهدين من قبل أصحاب التكفير وحاملي " الفكر الضال " بل وصل الأمر بهم إلى الاعتداء على رجال الأمن وولاة الأمر ، نسأل الله السلامة والعافية.

والصور التي تظهر الاعتداء كثيرة في واقعنا، وتكرارها واضح لكل متأمل منصف، والواجب إيقاف الاعتداء؛ لأن الضرر منه لا يحيط به قلم، والمسئولية على كلٍّ بحسبه والتوفيق بعد ذلك بيد الرب الكريم.

وكان الإنسان عجولاً

إنها إشراقة قرآنية (وكان الإنسان عجولا) . الإسراء ١١

إنها حقيقة تتمثل في فطرة الإنسان وطبيعة نشأته ، إنه الاستعجال ذلك الأمر الذي هو داء ، ويجر إلى عدة أدواء.

وإذا كانت بعض أمور الفطرة ضرر فلا بد أن نعلم أن الله قد فتح لنا باب المجاهدة ووعدنا أن يهدينا ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا))[العنكبوت:٦٩].

والاستعجالُ قد جرَّ على الأمة والأفراد والجماعات ضرراً وشؤماً لا يحيط بخطره قلم فانظر مثلاً:

– الاستعجال في اتخاذ القرار على مستوى بعض المشتروات، كيف أوقع صاحبه في ديون تراكمت عليه حتى أودعته خلف القضبان.

– الاستعجال في الدعوة إلى الله وحب تغيير الواقع والغفلة عن سنة التدرج فإنه قد أوقع أصحابه في خطأ التفسيق والتفجير والتكفير.

– وانظر إلى الاستعجال في طلب العلم كيف يرمي بصاحبه في فوضى الطلب فلا يخرج بعد سنين إلا مثقفاً لا طالب علم.

– وأما إن سألت عن الاستعجال في طلب الطلاق من قبل تلك المرأة، ثم استعجال الزوج في قبول طلبها، فهناك تقع الكارثة وتتفرق الأسرة، وتزول سحابة الأنس وتغيب معالم السكن، وأما الأولاد فهم ضحية الاستعجال وغياب الصبر.

– وهناك استعجال في قبول الرأي الآخر وعدم التأني والدراسة له مما ينتج من ورائه الإقدام على المهالك في الغالب.

– والاستعجال في قيادة السيارة يوقع صاحبها في الحوادث مما يدخل في ((وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ))[النساء:٢٩].

– والاستعجال في الحكم على الآخرين بدون قانون التثبت يتسبب في دمار العلاقات بل والويلات وفي التنزيل ((فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ))[الحجرات:٦].

- والاستعجال في قبول الرجل لتلك الفتاة لتكون زوجة بسبب إقناع الوالدين أو أحدهما بدون معالم التدين والنتيجة في الغالب طلاق أو تنازل عن الثوابت بسبب التورط في الديون أو وجود أبناء فيضطر الزوج إلى البقاء معها مع كراهيته لذلك ، والسبب الاستعجال.

- وأيضاً استعجال الفتاة في قبول الزوج، لأجل منصبه أو ماله أو جماله وعدم التفكير في دينه وصلاته، يجر على الفتاة آلام ويُغيَّب عنها آمال، وقد يكون من رواد المخدرات أو صاحب معاكسات فتندم الفتاة ولكن لا ينفع الندم.

- والاستعجال في علاج الأخطاء بلا منهج مدروس وخطة مناسبة لا يساهم في العلاج، بل يجعل الخطأ مجموعة أخطاء.

- الحديث عن الاستعجال يطول، وآثاره لا تنتهي فكن صبوراً متأنياً متأملاً وحينها سيكون لحياتك معنى.

ويؤثرون ربهم عند التزاحم

إنه الإيثار؛ العمل القلبي الذي يصرفه كثير من الناس إلى إيثار الخلق في أمور الحياة كالطعام واللباس ونحوها.

ولكن المعنى هنا أكبر والحديث أعظم؛ إنه إيثار الرب تبارك وتعالى وتقديم محبته على محبة غيره، والإقبال إلى محابه وعدم الالتفات إلى أي محبوب سواه.

إن الناس قد يسهل عليهم إيثار الخلق في أمور الدنيا، ولكن قد يصعب على كثير منهم إيثار الرب تبارك وتعالى.

لعل من صنوف البلاء وأنواع المحن التي قد تخفى على بعض الناس " الابتلاء بالإيثار الرباني ".

والمعنى: أنه قد تتزاحم عندك المحبوبات ويكون داعي النفس لها أكبر، ولكن وفي نفس الوقت يكون مراد الرب غير ذلك.

فيا ترى هل ستؤثر مراد الرب أو ستأخذ مراد النفس؟!.

والمثال يوضح المقصود:

- عند الرغبة في النوم هل ستحقق مراد النفس في الميل للنوم، أم ستبادر إلى صلاة الوتر التي هي عبادة الليل.

- عندما تكون فتنة في إظهار كلمة الحق في وقت تخفى على الناس، وقد أحجم عنها كثير ممن تلبس بالعلم، والحاجة إلى إظهارها ملحة، فهل يا ترى ستؤثر مراد الرب في بيانها عملاً بقوله تعالى: ((وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[البقرة:٤٢] أم أنك ستلتزم الصمت حفاظاً على مراد النفس ورضا أكثر الخلق لتسلم من فتنة الصدع بالحق؟!.

- عندما تكون أنت في مقام الدعوة إلى الله وتكون الأنظار إليك، ولكن داعي الأسرة والأقارب يطالبك بالتوقف أو التأخر، فيا ترى هل ستلبي رغبتهم أم أنك ستواصل الطريق مع مراعاة الحقوق التي لهم؟!.

إن المتأمل في سبب نزول: ((وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ..))[الحشر:٩] هو أن الصحابي آثر الضيف بتلك اللقيمات فكانت النتيجة (لقد ضحك الله من صنيعكما بضيفكما البارحة) وفي رواية: (لقد عجب الله..) . صحيح [صحيح الجامع: ٤٣٧٥].

فإذا كان من آثار الخلق على فتات الطعام نال هذا من الله، فكيف بالذي يؤثر مرضاة ربه على محبة الخلق وشهوات الدنيا؟! لا شك أن ثوابه كبير وعظيم.

إن الذي يؤثر ربه تبارك وتعالى سيجد نوعاً من الصعوبات في بداية الطريق " ليتأخر من ليس من أهل الإيثار، فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحاً .

ومن روائع ابن القيم في هذا الباب قوله :

وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنه ما آثر عبدٌ مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق وتحمل ثقل ذلك ومؤنته وصبر على محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أماناً فيا خيبة المتخلفين وياذلة المتهيبين ".

وقال: " هذا مع أن رضا الخلق لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور فهو مستحيل بل لا بد من سخطهم عليك، فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض ".

وقال: " فمن آثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم وجهالهم وأهل البدع والفجور، وأهل الرياسات الباطلة.. " .

وقال عن الذي يؤثر رضا الله: " فهو يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه وأعلاها لأولي العزم منهم.

وأعلاها لنبينا صلى الله عليه وسلم فإنه قاوم العلم كله وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه، و لم يأخذ في إيثار رضاه لومة لائم.

بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصور على إيثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه حتى ظهر دين الله على كل دين وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فلم ينل أحد من درجة هذا الإيثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه.

ولعلك تقول: وكيف أصل إلى درجة هذا الإيثار فقد طال شوقي له، وسمت همتي إليه، فأقول:

قال ابن القيم: وملاك ذلك أمران:

الأول: الزهد في الحياة.

الثاني: الزهد في الثناء: فما ضعف من ضعف وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء وثناء الناس عليه ونفرته من ذمهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين تأخرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشيئين: صحة اليقين وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضاً: بصدق اللجأ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما، فإلى هنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم والتوفيق بعدُ بيد من أزمة الأمور كلها بيده " .

وفي نهاية هذه الجولة في الإيثار لعلك تعرفت على بعض الصور وشيء من الإشارات حول هذا العمل القلبي، فالزم عتبة العبودية وكن بصيراً بمواطن المحن التي ستظهر لك حقيقة محبتك لربك جل وعلا واحذر من تقديم محابك على محابه.

وليبتلي الله ما في صدوركم

إنها سنة الابتلاء التي تنزل على قلوب أهل الإيمان ليكون بعد الابتلاء اكتشاف لعيوب القلوب وأمراض النفوس ((وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ))[آل عمران:١٥٤].

إنه الامتحان للقلوب حيث يظهر حقيقة ما في القلب من التعلق بالله والخضوع له والانقياد لشريعته.

إن كثيرين يظنون أنهم على شيء، ولكن ما إن يأتي البلاء وتمر عاصفته إلا وتزيل معها كل الظنون والأوهام لتبقى الحقائق والعقائد.

ونحن في زمن امتلأ بصنوف الفتن التي تقلق قلوب أهل الإيمان وتزلزل الأركان.

ولكن صاحب الإيمان الصادق ينظر بعين البصيرة لما وراء الابتلاء من تمحيص وتمكين فيصبر ويدعو ربه ويستعين به، فهو نعم المولى ونعم النصير.

الذنوب تمنع الانتصار

إننا حين نسمع عن خطر الذنوب وعواقبها نظن أنها على الفرد فقط وليس لها علاقة بالمجتمع، ولكن القرآن يخبرنا في قصة غزوة أحد عن الهزيمة التي نزلت بأهل الإيمان.

مع أن في ذلك الجيش سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار، ولكن ومع وجود سيد المرسلين إلا أن ذنوب بعض أفراد الجيش حرمت المسلمين من تحقيق الانتصار وحلول الهزيمة واستشهاد نحو سبعين وأسر سبعين آخرين.

وفي آيات سورة آل عمران توضيح وكشف فتأمل:

((إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا))[آل عمران:١٥٥].

فتأمل " تولوا " أي: انهزموا يوم أحد.

" إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا " قال ابن كثير: أي ببعض ذنوبهم السالفة . اهـــ .

قلت : ذنوبهم السابقة قبل المعركة مكنت وهيأت لإبليس أن يوقعهم في الهزيمة والتولي.

فانظر كيف أن الذنوب السابقة تجر إلى ذنوب أخرى إن لم يتداركها صاحبها بالتوبة.

ولهذا قال الله تعالى مبيناً سبب الهزيمة " أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا " أي: كيف تكون الهزيمة لنا ونحن أصحاب الإيمان، ومعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال الله: ((قل هو من عند أنفسكم)) .

فالانتصار على الأعداء لا بد أن يسبقه الانتصار على النفس ومجاهدتها على تقوية الإيمان والبعد عن العصيان ليأتي النصر ويتحقق المراد من الجهاد من إعلاء كلمة الله تعالى.

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون

هذه هي الحياة تصادف فيها " فتنة " في كل زاوية منها، وفيمن نرى ونعاشر لا بد أن تتدخل سنة " الابتلاء " لتمحص درجة الصبر لدينا، وكأن الغاية من الفتنة هي بيان " الصابرين " .

وهذا يتكرر في آيات القرآن ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ))[محمد:٣١] .

والآية الأولى ترسل لنا صور الافتتان في واقعنا المتكرر ((وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً))[الفرقان:٢٠].

وأتمنى منك أن تسبح في ظلال الآية وخذها على عمومها ولعل من صور الافتتان:

- افتتان المسلم بوجود الكافر وسيطرته وهل يصبر على أذاه وكيده.

- افتتان المرء مع زوجته وتقصيرها و.. فهل يصبر عليها أم لا؟.

- افتتان الزوجة بوجود سلوكيات خاطئة لدى زوجها فهل تصبر وتسعى لإصلاحه؟.

- افتتان الفقير بوجود الأغنياء وتملكهم لكثير من متاع الحياة وامتحان صبر الفقير، وهل يتخلق بالرضا والقناعة.

- افتتان الغني بوجود الفقير وهل يتجاوز الشح والحب للمال لكي يهدي الفقير ويتصدق عليه.

- افتتان الوالد بوالديه وشدتهما وقسوتهما عليه، فهل يصبر ويحسن إليهما.

- افتتان الوالدين بالأبناء، وهل يصبرون على حسن تربيتهم والسعي في إصلاحهم.

- افتتان الرجال بوجود النساء وانتشارهن في الأسواق والطرقات والمستشفيات، وهل يصبر ويغض بصره ويحفظ دينه.

- الافتتان بظهور رجال العلمنة في مواطن الإعلام " قنوات – جرائد " ليتحدثوا عما يريدون ولو كان " طعناً في الدين وثوابته "

والافتتان بذلك يظهر:

– الصبر على كيدهم والرد عليهم.

– النزول للميدان ومواجهتهم بسلاحهم والسعي لإيجاد وتفعيل القنوات الإسلامية والجرائد النافعة وكل سبيل شرعي لغزوهم وإيقاف سيلهم.

– الافتتان بغلبة أهل الباطل في بعض الأزمنة والأمكنة وغربة أهل الاستقامة، وحينها تتحقق معالم غربة الدين والله المستعان.

– الافتتان بالقضايا المالية التي تغري بعض ضعاف النفوس من خلال المعاملات المحرمة والشبهات المالية والشركات والأسهم.

– الافتتان بتقريب أهل الدنيا لبعض رجال العلم والدعوة لهم، ومنحهم بعض الهدايا الدنيوية التي هي " فتنة " لهم ولغيرهم.

أما " لهم " فلأن الهدية تأسر النفوس وتمنع أحياناً من كلمة الحق وتجعل المرء ذليلاً لمن أهداه.

وفتنة " لغيرهم " من أهل العلم والدعوة الذين لم ينلهم بعض متاع الدنيا، فهل يتطلعوا للدنيا أم يقنعوا بما لديهم من مبادئ ويزهدوا في الدنيا.

– الافتتان بعدم قبول النصح والتوجيه مما يجعل الناصح يشعر بعدم قبول الحق الذي يحمل، فيا ترى هل يستمر في طريق النصح، أو يخلد لصفة " السكوت " التي التصقت بـــ " الجبناء " .

– الافتتان بسكوت بعض أهل العلم عن بيان الحق والدعوة إليه، فهل ينطلق حينها من لديه العلم أو يسكت كما سكت من قبله.

– الافتتان في مسايرة الواقع لدى فئة ليست بالقليلة من عموم الناس بل وبعض من سار في طريق الاستقامة والعلم، ومسايرة الواقع – أعني بها – التقليد والأخذ بكل جديد حتى ولو كان مخالفاً للشريعة وعدم تطبيق قاعدة " العرض على ميزان الشريعة والنظر في موافقته لقاعدة المقاصد العامة والمصالح ".

والحديث عن مظاهر الافتتان بين الخلق كثيرة، والصور تتجدد دائماً، واللبيب يدرك في كل زمن ما هو الواجب عليه ليقوم به، وما هو المحرم ليحذر منه.

والله يريد أن يتوب عليكم

إنه الله التواب الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

إنه الله الذي يفرح بتوبة التائب أشد فرحاً ممن فقد دابته في فلاة حتى أيس منها ثم إذا بها أمامه.

إنه الله التواب الذي يهدي عباده المسرفين والمخالفين إلى الصراط المستقيم ليتوبوا إليه ويذوقوا الأنس به والسرور بمعرفته.

إنه الله التواب الذي يحب من عباده دوام الاستغفار والتوبة ويثيبهم عليه، إنه التواب وهي صيغة مبالغة؛ أي: كثير التوب على من تاب.

إنه التواب الذي دعا اليهود والنصارى للتوبة ((أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ))[المائدة:٧٤].

فسبحانه ما أرحمه بعباده، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ويحسن إلى التائبين وكأنهم لم يخطئوا قط، إنه التواب الذي يجازي بالحسنات إحساناً وبالسيئات عفواً وغفراناً.

إنه الله الذي يتوب على من أقبل إليه وأناب إليه مهما كانت ذنوبه، ومهما زاد إسرافه.

ومضة: لو لم تكن التوبة أحب شيء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق إليه.

ربنا تقبل منا

لما كان إبراهيم عليه السلام يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل كان يدعو ربه بقوله: ((رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[البقرة:١٢٧].

وعندما كان وهيب بن الورد يقرأ القرآن مر على قوله تعالى: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا))[البقرة:١٢٧] فبكى حتى بل لحيته رحمه الله وقال: يا خليل الرحمن! ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشغول أن لا يتقبل منك.

وهذا هو حال عباد الله الصالحين المخلصين كما قال الله: ((وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا))[المؤمنون:٦٠] أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات: ((وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ))[المؤمنون:٦٠] أي: خائفة أن لا يتقبل منهم.

وفي الآية الأخرى يقول الرب تعالى: ((إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ))[المائدة:٢٧] وكلما علم المرء بذلك فإنه يجاهد نفسه على تحقيق التقوى لكي يتقبل الله منه عمله.

وهكذا كان الأبرار والأتقياء؛ كانوا يعملون ويجتهدون ويخافون من عدم القبول، أما نحن فجمعنا بين التقصير والأمن.

فينبغي للمؤمن أن يتحلى بهذه الصفة، ويشعر قلبه بالخوف من عدم القبول حتى يجتهد ويعمل الكثير.

وينبغي كذلك للمؤمن أن يدعو ربه بالقبول، فهذا هو خليل الرحمن يدعو ربه ((رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا))[البقرة:١٢٧].

ونحن مأمورون بالاقتداء بهم وبهديهم كما في قوله تعالى: ((أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ))[الأنعام:٩٠].

يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً

ما أجمل المشهد، وما أحلى اللقاء حينما يتلاقى أولئك المتقون يوم القيامة في ذلك اليوم الشديد والعظيم.

يتلاقى أولئك الأبرار الذين عاشوا في الدنيا في "ظلال الإيمان وتقوى الرحمن".

يجتمعون هناك في أرض المحشر ويحشرهم الله إليه وفداً في كرامة وضيافة عند الرب المجيد.

نعم، لقد اجتمعوا في الدنيا على الطاعات والقربات، والتقوا في سبيل الدعوة إلى الله وتبليغ الدين، وكانت حياتهم كلها لله.

فيكون الجزاء من الرحمن "الإحسان إليهم" وصدق الله: ((هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ))[الرحمن:٦٠].

وتأمل قوله تعالى: ((..إِلَى الرَّحْمَنِ..))[مريم:٨٥] فهم سيتجهون إلى الرحمن الذي رحمهم في الدنيا، وهداهم لطاعته، ورحمهم فثبتهم على دينه، ورحمهم فتوفاهم على أحسن حال.

إي وربي ((يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا))[مريم:٨٥] فلولا الله لما كانوا متقين، ولولا الله الرحمن لأصبحوا في الجحيم والزفرات، ولكنها الرحمة الربانية لأولئك المتقين، فهنيئاً لهم عندما يحشرون إلى ربهم الرحمن، وما ظنك بلذة اللقاء؟؟

ومضة: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً

ما أعظم ذلك الداعية الصادق التقيَّ النقيَّ الذي امتلأ قلبه بحُبِّ مولاه وتعظيم شعائره فهو يدعو إلى الله بكلِّ ما يملك ولا يريد من أحدٍ من الناس ثناءً ولا مدحاً ولا تقديراً ولا شهادة شكر، هو يريد: « رضا الله عنه » .

فهمّهُ الأكبر أن يُحقِّقَ رضا الله، وهو يسعى دائماً إلى تحقيق تلك الغاية، نعم، إنه ليس فقيراً إلى مدح الناس وثناءهم، ولا ينتظر منهم شكراً لِعَمَلِه، بل يريد أن ينال الشكر الإلَهي له: ؟ إن ربنا لغفور شكور ؟.

إن من أسماء الله تعالى: (الشكور) فهو يشكر اليسير من العمل ويُضاعفه بلا عددٍ ولا حسبان وذلك الداعية يستحضر ذلك الاسم الإلهي بعد فراغه من عمله الدعوي، فعندما ينتهي يقف مع نفسه ويتساءل ؟

هل أنا ممن نال الشكر الربَّاني، فهو خائفٌ من الحرمان من الله، ويرجو رحمة ربه، إن شأن ذلك الداعية شأنٌ غريب، ويُتعب نفسه، ويُنفق ماله، ويكدح ليله ونهاره، وأمام عينيه اسم (الشكور).

ما ظنكم بشعوره ؟ ما ظنكم بخواطره ؟ وهو يلتمس الأعمال التي يفوز عليها بالشكر من الله تعالى.

والذين هم عن اللغو معرضون

في واقع الحياة تصادف أقواماً « لا حياء لهم » فترى الواحد منهم « بذيء اللسان » « عديم المشاعر » « سيئ العشرة ».

وتتفاجأ به وهو يحدثك بكل « جفوة » وينظر إليك « بكل قسوة »، فحينها لابد أن ترتدي لباس « الغفلة » وتلتحف بالحلم.

فوصيتي إليك: أعرض عن هذا، ولا تلتفت إليه ودعه ينبح كما يشاء، ولو وصل صوته إلى الفضاء.

وهذا تاريخ الأنبياء يرسم لك منهج « الإعراض عن السفهاء » وعدم إضاعة الوقت في سماع « كلامهم ».

والأدب الرباني لنا أن نلتزم بهذه النصوص ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾[الفرقان:٧٢] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾[القصص:٥٥] ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾[الفرقان:٦٣].

واعلم ـــ رعاك ربي ـــ أن عندك هموماً أعلى، وأعمالاً أغلى من الالتفات إلى هؤلاء الأغبياء فانطلق في (أهدافك) وحقق (إنجازاتك).

وإن بُليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع و لم يقل

وقولوا للناس حسناً

إنه توجيه من الرحمن الرحيم، إنه أدب نبيل وخلق جميل.

إنه "اللسان" صغير الحجم عظيم الشأن ما أجمل عندما تخرج منه الكلمات الجميلة الهادئة وما أحسنه عندما ينطلق بالعبارات الصادقة وما أروعه حينما يكون مصدر الحب والاحترام.

"وقولوا للناس حسناً " .

إنه خطاب للجميع بأن يختاروا أجمل الألفاظ وأحسن الكلمات حينما يتحدثون فيما بينهم. وفي الآية الأخرى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) أي أجمل وأفضل.

إننا نحتاج إلى اختيار أحسن الكلمات:

* مع الوالدين حينما نخاطبهم ونناديهم (وقل لهما قولاً كريما).

* ونحتاج هذا الخلق عندما يتعامل الزوجان فيما بينهم، فلا تجريح ولا تحطيم للمشاعر وخيركم خيركم لأهله.

* ونحتاج إليه في حوارنا وحديثنا مع الناس فنختار "أجمل العبارات " و"أصدق الألفاظ.

• ونحتاج إليه عندما نمارس الدعوة إلى الله وذلك عندما ننتقي أحسن الكلمات في خطابنا مع الناس (فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى).

• أيها الأحبة: إن الكلمة الطيبة صدقة، وهي يسيرة على من يسرها الله عليه.

• إننا في بعض الأحيان نستخدم "كلمات قاسية وجارحة"مع أننا نستطيع أن نضع بدلها "كلمة هادئة".

• إن الكلمات مجموعة حروف، ولكنها قد ترفعك عند الله وعند الناس، وقد تهوى بك إلى الجحيم والنيران.

• إنني أوصيك بأن تختار "كلمات جميلة "لتكون في "ميزان حسناتك" .

• واعلم أخي وأنت يا أختاه أن المجاهدة على حفظ اللسان وإصلاح المنطق من الأعمال التي يحبها الله تعالى (" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ") إنني أتمنى أن يصبح كل واحداً منا حريص على اختيار الكلمة قبل إخراجها، وهذا دليل التقوى (والله يحب المتقين).

إن مع العسر يسراً

لا أحد في الحياة إلا وقد ذاق مرارة الأسى، وشرب من كأس الحزن، ولبس ثياب المرض.. ويا ترى من الذي لم يتجرع غصص الهموم، ونزلت بساحته أمطار المصائب.. لا أظن أن أحداً نجا مما ذكرت.

ولكن المؤمن ينظر لذلك من نافذة « الكتاب والسنة » ليرى قرب الأمل، وضياء الفجر، وأن العسر يعقبه يُسر، وأن النصر مع الصبر، وان الفرج مع الكرب، وان الأيام القادمة تحمل الأفراح، وأن الليالي تعانق السرور.

فيا مهموم، إن ربك حكيم فيما قدَّر عليك، فلا تقنط وتجزع.. (لا تحسبوه شراً لكم) ووالله إنه قريبٌ وسميعٌ لصوتك.. (إن ربي لسميع الدعاء).. فابتسم، وانتظر الفرج، وأبشر فإن مع العسر يسرا.

إن سعيكم لشتى

مع إشراقة شمس النهار ينطلق الجميع لمزاولة الأعمال، والكل له غاية يسعى إليها، وهدف يسمو إليه، وتفاوت الناس في أهدافهم لا يحصيه إلا الله.

ولكن من الذي سيفوز نهاية المطاف ؟ سيفوز بلا شك من كانت غاية مطلوبه ومنتهى أمله " رضا الله " ويا سعادة من إذا أصبح وإذا أمسى ليس يرجوا إلا ربه ورحمته ورضوانه، فهو يسعى ويعمل وهو يتلمس ويبحث عما يحبه الله لكي يعمله وما يكرهه الله لكي يتركه.

وهناك في الطرف الآخر، أصناف من الناس لا يبالي الواحد منهم بطاعة ربه، ولا بما يحبه الله، بل إنه يبحث عما تهواه النفس، وما يدل عليه الهوى ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا))[الفرقان:٤٣].

وهؤلاء يتقلبون في الشهوات والآثام وهي غاية أهدافهم.. لبئس ما كانوا يصنعون، وهم في النهاية من سيندم.. ولكن لن ينفع الندم..

فاستمسك بالذي أوحي إليك

((فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[الزخرف:٤٣].

إنها آية جليلة القدر، عظيمة المعنى، فيها النجاة والسلامة لكل من عمل بمدلولها.

إن التمسك بالوحي فيه الخير كله في الدين والدنيا، وفيه السلامة من كل ضلالة وانحراف، وفيه الثبات ودوام الاستقامة، وفيه السعادة في الدنيا والآخرة.

قال السعدي في تفسير الآية: (فاستمسك) أي: فعلاً واتصافاً بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه بنفسك وفي غيرك.

((إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[الزخرف:٤٣] أي: موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء. ا.هـ.

وقال ابن كثير: أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم. ا.هـ.

إن الاعتصام بالكتاب والسنة وخاصة في أوقات الفتن هو المخرج وهو المنجى بتوفيق الله تعالى؛ ومما يؤكد ذلك، هذا الحديث: (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي) صحيح الجامع (٢٩٣٧).

وإن الناظر في أحوال الناس اليوم يجد أن بعضهم قد أعرض عن الكتاب والسنة، لا قراءة ولا تدبراً ولا عملاً ولا تحاكماً، بل هو متبع لهواه أو لمذهب شيخه وقدوته، أو لرأي محبوبه، أو غير ذلك من الأهواء والمذاهب.

ولا شك أن كل من أعرض عن الحق سيقع في الباطل، وكل من بحث عن الهداية في غير الكتاب والسنة فوالله لن يجدها مهما طال عمره.

إذا شئت أن ترضى لنفسك مذهباً

تنال به الزلفى وتنجو من النار

فدن بكتاب الله والسنن التي

أتت عن رسول الله من نقل أخيار

لا تحزن وعليك بالسجود

كنت اقرأ في آخر سورة " الحجر " فمرت علي هذه الآية: ((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ))[الحجر:٩٧-٩٨] وحينها توقفت متأملاً لهذه الوصية الربانية لنبينا صلى الله عليه وسلم.

نعم.. إن طريق الدعوة محفوف بالمكارة وتجتذبه أطراف من الهموم وتحيط به أمواج من الأذى، ولعل الداعية الصادق يفقد الصبر أو يخف عنده في بعض الأوقات حينما يشتد الكرب ويتأخر النصر.

فحينها تأتي الوصية الإلهية لتلقي عنك الهموم وتسمو بروحك نحو العلا وتأخذ بأحزانك لتلقي بها بعيداً عن نفسك الطاهرة ((فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ))[الحجر:٩٨].

نعم.. عليك بالتسبيح ليطمئن القلب ولكي ينشرح الصدر وتنزل السكينة، نعم.. عليك بالسجود لكي تذوق طعم القرب من الرب تبارك وتعالى وتتقلب في رياض الأنس والسرور مع العزيز الغفار.

يا محمد إذا ضاق صدرك فاعلم أن العبادة هي التي تزيل الهموم وتفرج الكربات، نعم.. إن أذى الكفر لا يتوقف ولن يهدأ.

وأنت أيها الداعية لابد أن تكون علاقتك بربك وخضوعك وخشوعك بين يديه في أعلى صورة وأرقى درجاته ((وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ))[الحجر:٩٩].

ألم يعلم بأن الله يرى

عندما نتأمل في الأسماء الحسنى لله تعالى فينبغي أن لا نقتصر على مجرد الدراسة العلمية العقدية بل لابد من النظر إلى الفوائد التربوية والإيمانية.

المراقبة في التعبد لله بهذه الأسماء: " الرقيب – العليم – الحفيظ – الشهيد – المحيط – السميع – البصير ".

وقيل في المراقبة هي: علم القلب بقرب الرب. وهي دليل على الوصول إلى مقام الإحسان ((وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ))[آل عمران:١٣٤].

قالوا فيها: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير. وقيل: من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه. وقيل هي: خلوص السر والعلانية لله تعالى.

– أنت تسير إلى الله فلابد من أمور:

١– لابد أن تعظم الله.

٢– أن يحضر قلبك مع الله.

٣– لا يلتفت قلبك إلى سواه.

– عندما ينادي منادي الصلاة هل تبادر إلى المسجد لتكون من الذين قال الله فيهم: ((وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ))[الواقعة:١٠].

– عندما ينادي منادي الصدقة وعندك المال هل تبادر لتفوز بالأجر الذي قال الله في شأن أهله: ((مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا))[البقرة:٢٤٥].

– عندما يشتد الحر وتتذكر فضل الصيام فهل تجاهد نفسك على ذلك لتفوز بباب الريان؟!.

– قبل أن تنام أما تذكرت فضل قيام الليل لتفوز مع الذين قال الله فيهم: ((كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ))[الذاريات:١٧].

– تحتاج إلى نور المراقبة: عندما تبدأ خواطر الشيطان لفعل المعاصي فحينها تتذكر الله فتتركها، وعندما تنتهي من المعصية وتتذكر الله حينها تندم وتبكي على جريمتك.

– نحتاج المراقبة لكي نحرص على عمارة أوقاتنا بما ينفع، وتحتاج إلى المراقبة عندما يصيبك الفتور في الدعوة إلى الله وخدمة الدين.

– ما أجمل المراقبة قبل القيام بأي عمل، وسؤال النفس هل هو لله أم لغيره ؟. ما أحلى مراقبة الله أثناء العمل وحفظ العمل أن تدخله شوائب الدنيا.

– ما أجمل المراقبة عندما تنتهي من العبادة ويرى الله في قلبك الافتقار والانكسار واحتقار النفس.

– تحتاج المراقبة في العمل الوظيفي هل تؤديه على الوجه المطلوب ؟ وهناك من يتساهل في السرقات المالية في بعض الدوائر الحكومية.. فأين مراقبة الله؟! وهناك من يقصر في تأدية المعاملات وخدمة الناس.

– وذلك العابد يحتاج إلى المراقبة عندما يدخل عليه الشيطان من باب العجب والافتخار لكي يُحبط عمله وهو لا يشعر، عندما يستشعر العابد قوله تعالى: ((وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا))[النساء:٨٣].

قاعدة: حفظ العمل أخطر من فعل العمل.

– وذلك العابد يحتاج إلى المراقبة عندما يثني عليه الناس ويمدحونه ويقدرونه لأجل عبادته وطاعته.

حينها يتذكر هذا الحديث: (لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) صحيح البخاري [٥٢٤١].

– نحتاج إلى نور المراقبة في البيت في إصلاح الأبناء وتربيتهم في عدم إدخال أجهزة الفساد إلى البيت ونحتاج إلى نور المراقبة في حسن الخلق مع الزوجة والعشرة.

وكذلك عند العدل في التعامل بين الزوجات لمن كان عنده زوجة ثانية.

– حكمة: عندما تتعب في أي عبادة فقل: يا نفس اصبري فإن الله رآك وأنت تتعبين لأجل رضاه.

– ونحتاج إلى نور المراقبة مع العمال والموظفين: وذلك في إعطائهم حقوقهم وعدم ظلمهم وإهانتهم وعدم ضرب الخادمات وعدم النظرة بشهوة للخادمة.

– نحتاج إلى المراقبة في تطهير القلب من محبة غير الله تعالى، وعدم التعلق بالصور والعشق للنساء، وفي تطهير القلب من أمراض الحسد والبغضاء الذي دخل في نفوس بعض الضعفاء.

وفي عمارة القلب بالخشوع والخضوع والإخبات بين يدي الله تعالى، وفي تصفية القلب من التعلق بالدنيا والجري وراءها، وصرف التعلق إلى الآخرة وما فيها من النعيم، وعند القيام إلى الصلاة ومجاهدة النفس على حضور القلب وخشوع الروح.

– وتلك المرأة تحتاج إلى نور المراقبة في هذه الأحوال:

قبل أن تخرج من البيت هل لبست الحجاب الشرعي فالله يراها.. عندما تخرج إلى السوق وترى الرجال وتنظر لهم هل تذكرت قوله تعالى: ((يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ))[غافر:١٩].

عندما تكون لها علاقة محرمة مع شاب أما تذكرت أن الله يراها ويعلم بما يجري بينهما.. عندما تقعين في حب مع فتاة وينتج " الإعجاب" أما تستحي من نظر الله لك وقد وقعت في ذلك الحب المحرم.

وتلك المرأة: التي قصرت في الدعوة إلى الله ومناصحة النساء أما فكرت في " نظر الله لها " وأنها لا تبالي بمبدأ الدعوة إلى الله تعالى؟!.

وتلك التي وقعت في " النمص " وقد غيرت خلق الله واستجابت لداعي الشيطان ياحسرتاه أن تفكري في جمالك عند النساء ونسيت جمالك عند الله الذي يراك وقد فعلت تلك المعصية.

وتلك التي لا تبالي في صرف المال في أمور لا تنفعها كالأزياء والأدوات التي تستطيع الاستغناء عنها، هل راقبت الله قبل صرفها لذلك المال؟!.

وتلك المرأة التي تسخر ببعض النساء اللاتي فيهن بعض العيوب " قصيرة – كبيرة الوزن " هل راقبت الله قبل أن تنطق بتلك الكلمات.

- وذلك الشاب يحتاج إلى المراقبة:

في بيته عندما يخلو بنفسه وتتحرك شهوته لفعل العادة السرية، وعندما يدخل المستشفى وتمر الممرضات أمامه فهل يغض بصره عن النظر لهن؟.. وعندما يصعد على درج الطائرة وإذا بالمضيفة تستقبله عند باب الطائرة فهل يحذر من النظر لها؟.

ونحتاج إلى نور المراقبة في البيع والشراء؛ لكي نتصف بالسماحة والرحمة ولكي لا نغش ولا نخدع ولكي لا نحسد زميلنا لأن عنده مال أكثر.

وأنت مريض راقب الله الذي قدر عليك فلا يرى في قلبك إلا الصبر والتوكل وتفويض الأمر إليه واليقين به والتضرع بين يديه.

الفهرس

المقدمة ١
فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ٢
التمسك بالدليل سبب الغلبة والانتصار ١٦
يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ١٧
الاستبدال الرباني ١٩
لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ٢٠
لا هية قلوبهم ٢٢
المنافقون والرغبة في النور ٢٣
فلن أكون ظهيراً للمجرمين ٢٦
خذوا زينتكم عند كل مسجد ٢٧
وفي داخل الكهف رحمة ٢٩
ولا تتبع أهواءهم ٣١
واسجد واقترب ٣٢
إنه لا يحب المعتدين ٣٣
وكان الإنسان عجولاً ٣٦
ويؤثرون ربهم عند التزاحم ٣٨
وليبتلي الله ما في صدوركم ٤١
الذنوب تمنع الانتصار ٤٢
وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ٤٣
والله يريد أن يتوب عليكم ٤٥
ربنا تقبل منا ٤٦
يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ٤٧
لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ٤٨
والذين هم عن اللغو معرضون ٤٩

وقولوا للناس حسناً ٥٠
إن مع العسر يسراً ٥٢
إن سعيكم لشتى ٥٣
فاستمسك بالذي أوحي إليك ٥٤
لا تحزن وعليك بالسجود ٥٦
ألم يعلم بأن الله يرى ٥٧